

الاستعارة عند محمد الولي مسار المنجز ومنطلق الإشكال

The Metaphor of Mohamed El Ouali: A Journey of Achievement and the Genesis of the Problem

د. خالد العنكري*

جامعة ابن طفيل، كلية اللغات والآداب والفنون، القنيطرة (المغرب)

elanigrykhalid@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2023/07/17 تاريخ القبول: 2024/01/22 تاريخ النشر: 2024/03/04

Abstract:

Through this research paper, we aim to examine the rhetorical endeavors of Mohamed El Ouali by focusing on his exploration of metaphor. El Ouali dedicated his scholarly efforts to elucidating the overarching patterns governing this literary device across Greek, Arabic, and Western achievements. This exploration has brought forth diverse perspectives, enriching the fields of rhetoric and discourse analysis in contemporary discourse. Metaphor has evolved into a multifaceted tool for analysis and interpretation, offering insights from various angles. The selection of this topic stems from the scholarly contributions made by El Ouali in rhetoric, particularly through translation, and his critical examination of borrowing perspectives in Arabic literature and beyond. Furthermore, recognizing the absence of a definitive starting point for El Ouali's efforts, this research paper endeavors to address this gap, offering a comprehensive understanding of the rhetorician's approach to metaphor.

Keywords: Rhetoric, metaphor, metaphorical analysis, Mohamed El Ouali.

ملخص البحث:

نسعى من خلال هذه الورقة البحثية الوقوف عند جهود البلاغة عند محمد الولي من خلال مبحث الاستعارة، الذي كرس له جهده العلمي رغبةً في بيان النسق العام الذي حكم هذا المبحث في المنجز اليوناني والعربي والغربي، الأمر الذي جعل مبحث الاستعارة مقروءاً بمنظورات مختلفة أغنت مجال البلاغة وتحليل الخطاب في اللحظة المعاصرة، إذ صارت الاستعارة آلية للتحليل والتأويل من منظورات متعددة.

وقد وقع الاختيار على هذا الموضوع نظراً للقيمة العلمية التي قدّمها الباحث في مجال البلاغة من خلال الترجمة، ودراسة منظورات الاستعارة في المنجز العربي وغيره دراسةً نقدية. وبعد تتبع تلقي منجز الباحث من قبل الباحثين المعاصرين، وجدنا غياباً للمسار الذي سلكه الباحث إلى أن راكم منجزاً علمياً أحق بالتلقي.. إضافة إلى غياب المنطلق الإشكالي الذي حكم جهد الباحث، وقد حاولت هذه الورقة البحثية أن تسد هذا الفراغ؛ من أجل تشييد صورة عامة حول مبحث الاستعارة عند البلاغي محمد الولي.

الكلمات المفتاحية: البلاغة-الاستعارة-الاشتغال

الاستعاري-محمد الولي.

مقدمة

يعد محمد الولي من البلاغيين المغاربة الذين انشغلوا بالبحث في "الاستعارة"، وقد امتازت اجتهادات الباحث بالانفتاح، إذ اختاره منطلقاً ومنهجاً في مساره البحثي عامة، والاستعاري خاصة، نأياً عن الانحصار في التراث اليوناني أو العربي أو الغربي، مستعيناً بأدوات بحثية مفتاحها اللغات الحية... إذ مكنته من رؤية فضاء البلاغة بمناظير متعددة ومتنوعة، وهو ما طبع أعماله البلاغية وترجماته البليغة بسمات خاصة، أهمها: استحضر النسق، والانفتاح، والدقة، مع التقيّد بالصرامة العلمية والمنهجية المتطلبة، من هنا اكتسبت أعمال البلاغي محمد الولي قيمة علمية شكلت ورداً لكل باحث في مجال البلاغة وتحليل الخطاب.

من هذا المنطلق وقع الاختيار على موضوع: «الاستعارة عند محمد الولي، مسار المنجز ومنطلق الإشكال»، الذي سنحاول من خلاله إضاءة جوانب ظاهرة بذكر منجزات الباحث كاملة، فيما يخص موضوع «الاستعارة»، وأخرى خفية مهمة بالوقوف عند الإشكالات الكبيرة والجزئية التي حكمت منجزات الباحث، من خلال الأعمال البلاغية والترجمات مهمّة نشكل عند القارئ رؤيةً نسقية لمسار الاشتغال الاستعاري عند البلاغي محمد الولي.

1. مسار البحث الاستعاري في المنجز البلاغي لمحمد الولي

بدأ مسار البحث البلاغي الاستعاري عند محمد الولي في أول منجزاته الأكاديمية مع مقالة علمية خصصها لمدرسة تصوّر أبي يعقوب السكاكي (ت626هـ) لمفهوم الاستعارة وأنواعها وتقسيماتها، وقد حملت هذه الدراسة عنوان: «الاستعارة عند السكاكي»¹، إذ أخذ فيها مسلك «ضبط المفهوم ومحاولة تتبع ما قد يكون فيه من انسجام أو تنافر، وترصد المدى الذي تصل إليه هذه المفاهيم»²، وهذا يدل على قيمة الضبط المفهومي عند البلاغي في البحث البلاغي العربي التراثي ومدى تداوله في الكتب البلاغية التي تعد مصدراً من مصادر البلاغة العربية.

ونجد أثر الاستعارة حاضراً عند محمد الولي في كتابه الموسوم بـ: «الصورة الشعرية في الخطاب النقدي والبلاغي»³، الذي خصّص موضوعه لمكانة الصورة الشعرية في المنجز التراثي العربي البلاغي والنقدي، وفي المنجز الغربي كذلك، وقد «وسّع مفهوم الصورة إلى حد أصبح يشمل كل الأدوات التعبيرية الشعرية... من وسائل التعبير الفني»⁴، وتجد الاستعارة طريقها في ثنايا الكتاب؛ لأنها تتأطر ضمن الصورة الشعرية في الفصل الثالث، الذي أخذ عنوان: «الصورة الشعرية موضوعاً للتصنيف».

وقد بدأ البحث الاستعاري عند البلاغي يتوسع في بحوث علمية أخرى شكلت وحدة متناغمة ومتماسكة رؤية ومنهجاً ومقاربة، وهو ما يوحى به كتاب: «الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية»⁵، وقد كان هذا المنجز البلاغي خلاصة بحث في مبحث استعارة؛ تتبع فيها البلاغي مبحث الاستعارة عند اليونان والعرب والغرب، وقد سدد اهتمامه تجاه ثلاثة مجالات مهمة، وهي: الشعرية، والحجاج، والصورة البلاغية، وكأنّ تأثير المنجز السابق ظل حاضراً فيما تم إنجازه، لكنّ الاستعارة كانت من أولويات الاهتمام البحثي عنده.

ليكون الكتاب المذكور أنفاً حلقة مهمة في المنجز البلاغي العربي الحديث؛ إذ انطلق فيه محمد العمري من ثلاث بنئات، وهي: (اليونانية-العربية-الغربية)، وقدّم لكل واحدة منهما نماذج بارزة لا يمكن تخطيها، فجعل

من بعض أعمال أفلاطون (Platon) وأرسطو (Aristote) نماذج ممثلة للمنجز البلاغي اليوناني، وأخذ من منجز عبد القاهر الجرجاني (ت472هـ)؛ "أسرار البلاغة"، و"دلائل الإعجاز"، ومنجز حازم القرطاجني (ت684هـ)؛ "منهاج البلغاء وسراج الأدباء"، موضوعا للاشتغال البلاغي الاستعاري في التراث العربي، ثم وقف عند منجز شائيم بيرلمان (Chaim Perelman)، ليكون نموذجا للبلاغة الغربية.

وقد امتدت هذه الجهود العلمية، فيما بعد، بالتوسيع والبحث والمقارنة والتطبيق في مجموعة من المقالات العلمية التي عمّقت التصورات ووسعت المدارك فاتحة آفاقا بحثية جديدة في المنجز البلاغي عامة. إن هذه الجهود البلاغية تعكس رؤية نسقية حكمت منجز محمد الولي منذ أن باشر مجال البلاغة بما جاء به السكاكي، كما أنّها جهود أسهمت -بشكل كبير- في مدّ الباحث العربي في مجال البلاغة بالمسار الذي قطعت الاستعارة في مجموعة من البيئات عند أقطاب البلاغة.

وقد كان لترجمة النصوص والكتب البلاغية دور أساس في ازدهار المبحث البلاغي الاستعاري في منجز محمد الولي، وهو ما تشهد عليه ترجمة مجموعة من الكتب البلاغية، مثل ترجمة كتاب: «بنية اللغة الشعرية»⁶ لجان كوهن (Jean Cohen)، مع محمد العمري، وقد كان موضوع الكتاب البحث في الشعرية بوصفها علما موضوعه الشعر، وترجمة كتاب: «قضايا الشعرية»⁷ لرومان ياكوبسون (Román Jakobson)، مع مبارك حنون، الذي كان موضوعه البحث في مجموعة من القضايا المتصلة باللغة⁸ من منظور لساني وثقافي... وتستمر سلسلة الترجمة عند محمد الولي بترجمة كتاب: «البلاغة المدخل لدراسة الصورة البيانية»⁹ لفرانسوا مورو (Moro François)، مع عائشة جرير، الذي كان موضوعه البحث في «المقومات البيانية التي يدرجها البلاغيون المتقدمون ضمن مباحث الكلمات، ويديرها نقاد الأدب ضمن مباحث الصورة الشعرية أو الصورة الفنية أو الصورة الأدبية»¹⁰.

وقد ظل تمسك محمد الولي بالاستعارة وبقيمتها داخل الخطاب واضحا في إشاراتة النقدية الدقيقة حول منجز مورو، وهو ما بدا في تقديم ترجمة الطبعة الثانية للكتاب، بقوله: «فإننا لا نغيب على الكاتب إلا غض بصره وعدم مده خارج الدائرة البيانية الصرف. كما نتمنى أن يوسع في الجوانب الجمالية وفي الحجاجية للبيان وفي الاستخدامات الاستعارية في اللغة اليومية وفي الخطاب الديني وفي خطاب العلوم الإنسانية»¹¹.

تخللت هذه الترجمات القيّمة للمنجزات البلاغية الغربية مقالة بلاغية مغربية تطبيقية، وسمها، ب: «استعارات ريفية ثقافية وكونية»¹²، التي عرض فيها مجموعة من الأقوال التي تنحو منحى شعريا في التراث الأمازيغي الريفي المغربي، ثم رصد صورة الاستعارة المتضمنة في القول مع الوقوف عند أبعادها الكونية.

إنّ هذا الجهد التطبيقي، الذي تمثلته المقالة والمقالات الأخرى، أخرج البحث البلاغي العربي من النمطية التي طالته في المنجزات البلاغية، إذ وجّه بحثه إلى ناحية قل الاهتمام بها من قبل الباحثين المعاصرين.

ليعود البلاغي من جديد إلى منجز جان كوهن بترجمة كتاب: «الكلام السامي، نظرية في الشعرية»¹³، الذي يعدّ تتيما لما بسطه في كتابه الأول: «بنية اللغة لشعرية»، وقد كان الدافع إلى تقديم هذه الترجمة إلى القارئ العربي إتمام التصور البلاغي الذي حكم منجز جان كوهن في كتابه الأول، وهو ما عبّر عنه، بقوله: «إنّ أهم عناصر ومكوّنات مشروع جان كوهن تجد أصولها في علمي الشعرية والبلاغة... وكان في كل ذلك يتزود من مخازن ومستودعات الشعرية والبلاغة القديمتين: الاستعارة والتشبيه... إلخ»¹⁴.

ينم هذا القول عن الإحاطة العامة بمشروع جَانْ كُوِهِنْ في مضمار البحث البلاغي الغربي، وتعد مقدمة الترجمة للمترجم محمد الولي بحثاً مركّزاً رسم فيه المسار الذي قطعتة البلاغة اليونانية والغربية منذ نشأتهما مع أفلاطون وأرسطو. فهي مرجع مهم لكل من أراد معرفة المراحل التي قطعها البلاغة في التراث اليونان وامتداداته في المنجز الغربي الحديث.

لم يقف مسار الترجمة المتصلة بمبحث الاستعارة عند محمد الولي فيما سبق ذكره، بل تواصل لبلوغ ترجمة كتاب: «الاستعارة الحية»¹⁵ لِبُول رِيكُور (Paul Ricœur)، الذي خصّصه صاحبه للاستعارة في بعدها اللساني، وما تتصل بها من فلسفة، وقد بسط المترجم في بداية الكتاب مقدّمة طويلة غنيّة تمدّ القارئ برؤية عامّة تغني معرفته في مجال البلاغة الغربية عموماً، ومبحث الاستعارة خصوصاً.

أمّا كتاب: «فضاءات الاستعارة وتشكلاتها في الشعر والخطابة، والعلم والفلسفة، والتاريخ والسياسة»¹⁶، فهو تجميع للعديد من المقالات العلمية التي نشرها فيما قبل في مجالات علمية وكتب جماعية، مع تطويرها وتنسيقها لتلقى سبيلها إلى القارئ العربي.

وسنحاول فيما هو آتٍ عرض عناوين هذه المقالات، مع إبراز موضوعها بشكل مقتضب إفادةً للقارئ وتوضيحاً للمسار الذي قطعه المنجز البلاغي عند الباحث.

أولى مقالات هذا الكتاب، مقالة وُسمت بعنوان: «حول الاستعارة عند أرسطو»¹⁷، وقد عرض فيها رأي أرسطو حول الاستعارة وتوظيفها في الخطاب من جهة الحضور والغياب، وكذا في اللغة اليومية وفي الخطابة وفي الشّعر من جهة الأداء والأسلوب، لأنّها تحمل طاقة حجاجية وتوضيحية، ودهشة معرفية لكونها تتضمن في طياتها بُعداً تشبيهاً.

وثاني المقالات المضمنة في الكتاب، وسمت بـ: «حول شعرية أرسطو»¹⁸، وقد سلك في هذه المقالة مسلك «تطوير الأفكار الواردة بشأن شعرية أرسطو في الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية»¹⁹.

وثالث المقالات أخذت عنوان: «الاستعارة من النص إلى العالم الوجداني»²⁰، وقد حاول فيها أن يعيد صياغة مقدمة كتاب الكلام السامي الذي سبقت الإشارة إليه.

ورابع المقالات بعنوان: «جولة في ضواحي الاستعارة الحية لبُول رِيكُور»²¹، وقف فيها عند تصوّر ريكور للاستعارة، إذ «يشدد ريكور على الملامح النصيّة للاستعارة والدلالية والخطابية والمعرفية. مشروع ريكور بصدد الاستعارة هو بشكل مختصر دحض التصور المحسناتي للاستعارة»²²، وفيها محاولة لاستقراء تصوّر ريكور بخصوص الاستعارة والعودة إلى المنجز الاستعاري اليوناني لبيان أوجه الائتلاف والاختلاف بين التصورين.

وفي المقالة الخامسة التي حملت عنوان: «الاستعارة في الخطاب اليومي والعلمي والسياسي»²³، تناول فيها محمد الولي ثلاثة أنواع من الخطابات المهمة في حياة الإنسان لما تتضمنه من استعارات يحيا بها الخطاب؛ (اليومي-العلمي-السياسي)، لأنّ الاستعارة عنده «أداة يستنجد بها الجميع، سواءً العوام أو الشعراء أو الساسة أو الوعاظ بل وحتى العلماء»²⁴، وهنا تمطيط لمساحة الاشتغال الاستعاري في الخطابات الرسمية وغيرها، وتجاوز لتلك الحدود الضيقة التي رافقت الاستعارة ردحاً من الزمن.

ولم يبقَ اشتغال محمد الولي منحصرًا فيما سلف ذكره، بل تعدى ذلك إلى إنجاز أعمال أكاديمية حدد فيها مواضع الاستعارة وحللها تحليلًا يقرب إلى القارئ حقيقة الخطابات، مستفيدًا مما راكمه من خبرة علمية بخصوص مبحث الاستعارة وكيفية اشتغالها، وخير شاهد على ذلك، المقالة السادسة من الكتاب التي وسمها بـ: «استعارات ابن خلدون»²⁵، والتي انطلق فيها من تصوّر شمولي للاستعارة، لكونها تأتي في النسيج النصي عندما يريد المؤرخ مدّ المتلقي بخبر أو معلومة... إلخ.

يبين ما ذكرناه، قوله: «إنّ المؤرخ الذي لا تتوفّر له حظوظ التجربة ولا إمكانات اللجوء إلى البرهنة المنطقية الضرورية، يغرق في بحر البلاغة التي تتغذى أساسًا بالقياسات المضمرة وأشكال التعالقات الكنائية داخل الزمان أو داخل المكان أو المقارنات التي تحاذي مجال الشعر والخطابة»²⁶.

لقد جاء هذا القول تمهيدًا لمجموعة من الاستعارات التي وردت عند ابن خلدون؛ لأنّ الاستعارة عنده «تخطى الاستخدام الأسلوبى لكي يضطلع بدور حجاجي إقناعي»²⁷، وقد وقف المحلل بعد ذلك في دراسته عند مجموعة من الاستعارات الواردة في عمله²⁸.

وسيرا في سبيل الاشتغال البلاغي التطبيقي الاستعاري عند محمد الولي، نجد المقالة السابعة الموسومة بـ: «البلاغة في خدمة السياسة، خطاب حركة 15 ماي 2011 الإسبانية نموذجًا»²⁹ مخصصة لتحليل مجموعة من الخطابات التي تحمل بعدًا ثوريًا صنعتها حركة 15 ماي الإسبانية سنة 2011، عبر مجموعة من المدونات، التي «تستقطب في جملتها شعارات وبيانات ورسومًا أو مدونات في لافتات تتصدّر المظاهرات الضخمة أو عبارات مكتوبة على صفحات الورق المقوى يحملها عاليًا المتظاهرون. ولقصر كثير من هذه النصوص، وهي في غالبيتها شعارات slogans، فهي تشبه الأجناس البسيطة من قبيل الحكيم السائرة والأمثال»³⁰.

هنا يُخرج محمد الولي المتلقي العربي من عالم الاستعارة في بعدها التنظيري إلى البحث في بنيتها وبعدها الحجاجي، واصطفى لذلك نماذج من الصور، والملصقات، واللافتات، واللوحات الفنية المرفقة بالتعليق الثائرة.

وتعبّر الاستعارة لتبلغ الخطاب الإشهاري في المقالة الثامنة التي حملت عنوان: «الإشهار ملتبسًا بالجنس»³¹، إذ يجعل من الاستعارة أداة للتحليل من خلال صورة إشهارية لـ (بينوتون) التي حملت شعار (United Colors of Benetton).

وفي المقالة العاشرة من الكتاب، التي حملت عنوان: «الكناية والشاهد والتشبيه الاستعارة والتمثيل والأسطورة»³²، وقف الباحث عند مجموعة من المفاهيم البيانية المهمة، وهو ما ذكر في بداية المقالة، بقول المؤلف: «نقدم في هذه المقالة عرضًا مختصرًا لأهم المفاهيم البيانية المتصلة بالنظرية التأويلية أو الهرمينوطيقية. أي المتصلة بمسألة المعنى المجازي الذي يمكن أن يكون المبدع قد قصد إليه»³³، فهو بذلك يهدف إلى وضع حدود معنوية للمفاهيم، وعيًا منه بأنّ هناك حاجة علمية إلى التدقيق المفهومي.

ليختم الكتاب بمقالة، حملت عنوان: «مساهمة في تحرير البلاغة العربية»³⁴، ألقى فيها الضوء على المنظور الذي ساد في البلاغة العربية فيما بعد السكاكي، إذ أصبحت البلاغة منحسرة في علم المعاني والبيان

والبديع، وهو ما أساء لها وبخسها حقها... فالمقالة، حقيقة، إسهام في تصحيح مسار البلاغة العربية وما صارت عليه في الكتب المدرسية، وبين جدران قاعات الجامعات العربية والمؤسسات التعليمية العتيقة. ويأتي عمل علمي آخر، لا يقل أهمية عن سابقه، وهو «الخطابة والحجاج بين أفلاطون وأرسطو وبيرلمان»³⁵، الذي تضمن مجموعة من الدراسات الأكاديمية التي بحثت البلاغة اليونانية والعربية والغربية، ومنها مقالة حملت عنوان: «الاستعارة الحجاجية بين أرسطو وبيرلمان»³⁶، عرض الباحث فيه دراسة لمفهوم الاستعارة وأهم خصائصها عند أرسطو وبيرلمان، وفي مقالة أخرى، ضمن الكتاب نفسه، يجد القارئ مقالة أخرى، بعنوان: «استعارات الفروسية لأحمد المجاطي»³⁷، قدّم فيها الباحث دراسة تطبيقية لأنواع الاستعارات الواردة في ديوان أحمد المعداوي المجاطي، وهي دراسة تطبيقية.

نجد محمد الولي مترجماً مقالة من اللغة الإسبانية إلى العربية للفيلسوف الإسباني خوسيه أورتيغا إي جاسيت (José Ortega y Gasset)، وسمها بـ: «الاستعارتان الكبيرتان: الاستعارة في الشعر والعلم»³⁸، وهذه المقالة تنخرط في نفس نادي أنصار الاستعارة الذين يرون أنها تلعب أدواراً ابتكارية في العلم والفلسفة ولغة التداول اليومي وليس الشعر فقط»³⁹.

لقد عرفت هذه المقالة عناية خاصّة عند بعض الدارسين في ميدان البلاغة، كما أثبت ذلك المترجم في تقديمها إلى القارئ العربي، إذ إنّها تثبت تصوّرات قديمة تجاه الاستعارة، وتحاول في الآن نفسه الكشف عن زوايا جديدة تندرج ضمنها.

وعندما نتقدم بحثاً في منجز محمد الولي الاستعاري نجد مقالة عنوانها بـ: «الاستعارة بهويات متعددة»⁴⁰، وقد تناول فيها الاستعارة بشكل موجز ومركّز في التراث العربي واليوناني وفي الجهود الاستعارية الغربية الحديثة، ونعدها مقالة جامعة لأهم التصورات الاستعارية عبر الثقافات الثلاث المذكورة.

لقد كانت الغاية من عرض جميع أعمال محمد الولي المهمة بالاستعارة علميةً فرضتها طبيعة القراءة التي اعتمدها؛ بغية إدراك النسق التأليفي الاستعاري عند الباحث، لبيان مركزية مبحث الاستعارة في جل الأعمال الغربية التي ترجمتها، وإنّ القارئ لهاته الأعمال المترجمة، يجد المترجم مستحضراً للرؤية النسقية والسياقات العامة والخاصّة التي تحكمته في إنجاز كل منجز، مما يهوّن عليه ولوج عوالم الكتاب وهو مزوّد بعدة علمية تؤهله للفهم السليم لما أتى بين دفتيه، إضافة إلى المقالات العلمية التي حاول من خلالها بيان مكانة الاستعارة في القصيدة العربية الفصيحة، وفي الثقافة واللغة الأمازيغية، ولم يهمل الباحث الاشتغال الاستعاري في الخطابات السياسية والإشهارية والخطابات الثائرة واليومية، وهذا العمل دليل على إعادة قراءة ما تداولته كتب التراث البلاغي العربي في مبحث الاستعارة، والأخذ بما أفادت به الجهود اليونانية والغربية في هذا الباب.

2. المنطلق الإشكالي في البحث الاستعاري عند محمد الولي

يتحدد المنطلق الإشكالي، الذي حرك عمل البلاغي محمد الولي في أثناء تأليفه البلاغي أو الترجمات التي قدّمها إلى القارئ العربي، في منطلقين أساسيين - إن أردنا تضييق دائرة المنطلقات العامّة في صورة موجزة:

- الأول: البحث عن الاشتغال البلاغي في الخطاب الشعري؛ بمعنى آخر، البحث في المقومات الخطابية التي تجعل من خطاب ما خطاباً بليغاً، مع الانفتاح على خطابات أخرى لم تجذب اهتمام البلاغيين

القدماء في البيئة العربية، ويكمن ذلك في مدارس الخطابات الشعرية والهامشية؛ اليومية والثورية والأمثال العامية الأمازيغية والدارجة المغربية. فهذه المزاجية في الاشتغال البلاغي الاستعاري الموزع بين الفصح والعامي والمركزي والهامشي أسهم في إغناء المشهد البلاغي المغربي ودفع بمجموعة من الباحثين إلى الانخراط بحثاً واجتهاداً في مضمار بلاغي مهجور.

- الثاني؛ فهو البحث في أسرار بلاغة الخطاب، أو نسميه البحث عن سؤال البلاغة؛ السؤال المتصل بالخطاب الشعري العربي تحديداً، ثم المتصل بالآراء البلاغية العربية الماثلة في كتب التراث العربي أو اليوناني أو الغربي، وببلاغة خطابات ظلت في الهامش وهي محملة بصور بلاغية تجعلها بليغة لضمها أحد الجناحين؛ التخيلي أو التداولي، كما أنّها حريصة على تحقيق الإمتاع أو الإقناع أو هما معا.

هذا المطمح البلاغي الكبير، الذي حركه إشكالان مركزيان الأول؛ البحث عن الاشتغال البلاغي في الخطاب الشعري، والثاني؛ محاولة الوقوف عند أسرار بلاغة الخطاب، أسهم في ظهور أعمال بلاغية لا يمكن لأي دارس في مجال البلاغة وتحليل الخطاب تخطئها، نظراً لقيمتها العلمية والمعرفية المنيرة للسالك في سبيل البلاغة العربية والغربية... وقد تم في المحور السابق عرض ذلك عرضاً مفصلاً؛ بهدف البيان.

ونجد إشكالات جزئية إذا ما تقدمنا في البحث البلاغي الاستعاري عند الباحث، ومن بينها، إلى جانب الإشكاليين المركزيين السابقين، الوصول إلى بلاغة كونية وعامة تهدف إلى رصد التصورات البلاغية تجاه الاستعارة والصورة الشعرية بين ثقافات متعددة ومتنوعة، وهذا التعدد والتنوع أغنى المقاربة البلاغية في البيئة العربية؛ فمحمد الولي لم يبقَ حبيس تراث محدد، بل آمن بالانفتاح العلمي وسعى فيه تأليفاً وترجمة، وخير دليل على ما أدلى به في قوله: «محاولاتٌ سيجني داخل تراثٍ واحدٍ، ولو كان تراثاً عظيماً مثل التراث العربي ليس من اختياري، أنا اخترتُ الانتماء إلى العالم... نحاولُ تفكيكُ التراثِ وجعلهُ عجيئاً رطباً قابلاً لتفويته إلى العقول الشابة»⁴¹.

يتبين للقارئ من خلال القول السابق أنّ الإشكال الفرعي الأول، هو مدارس التصورات البلاغية في التراث اليوناني والعربي والمنجز الغربي الحديث، وتهوين فهم هذا التراث حتى يلقي طريقه إلى عقول الشباب، فاستحضار الشباب هنا ليس ضرباً من المصادفة، بل هو مقياس دال على أنّ الباحث يحاول نقل هذه الرؤى البلاغية وما يرافقها من معارف وعلوم إلى من هم أهل لذلك، وهم شباب البلاغة الذين سيواصلون البحث ويحملون المشعل في هذا المسلك العلمي الذي تتكامل فيه علوم متصلة باللسان والإنسان صناعة وتحليلاً وتأويلاً.

لن يتأتى لمتلقي البلاغة ما سلف ذكره إلا إذا خرج من خرائب البلاغة⁴²؛ ويقصد بها التصورات التي أصبحت عليها البلاغة في الكتب المدرسية والمدارس العتيقة والجامعات العربية والمعاهد الدينية، فانحسار البلاغة في علم المعاني والبيان والبديع أمر جعل البلاغة غير مسيطرة لمجموعة من الخطابات لما تتضمنه من استراتيجيات لا تسعف في الوصول إليها، وهذا إشكال معرفي مهم أسهم في بزوغ مجموعة من المنجزات البلاغية تهدف إلى ترميم بيت البلاغة بوضع ترجمات وإحداث مقاربات تطبيقية تحاول تصحيح مفهوم البلاغة وآليات اشتغالها داخل الخطاب وخارجه، وهو تشجيع لمجموعة من الباحثين لأخذ هذا السبيل من

البحث، مع استحضار النسق المفهومي البلاغي حتّى لا يعرف البيت الدّخلي للبلاغة تشويشاً في الجانب المصطلحي والمفهومي.

وقد تقيّد محمد الولي في أعماله البلاغية سواء في التّأليف أو الترجمة بالبحث في نواة المفهوم البلاغي، وهو الأمر الذي لم نجده كثيراً في المحاولات التجديدية للبلاغة العربية، بحسب علمنا، فقد جعل من الاستعارة محوراً مهماً في تحليل الخطابات، ووسع دائرة مفهومها وجعلها عميقة في الاشتغال داخل الخطاب، ومرد هذا الرجوع إلى التراث البلاغي العربي عند عبد القاهر الجرجاني وحازم القرطاجني؛ أي الأصول المؤسسة لمنظورات بلاغية شكلت فيما بعد امتدادات في كتب البلاغيين المتأخرين، والرجوع، أيضاً، إلى منجز أرسطو وبعض الاجتهادات البلاغية الحديثة في البيئة الغربية مثل ما جاء به شاييم بيرلمان، تزفيتان تودوروف، وهنريش لاوسيرج... إلخ، والغرض من ذلك وضع قراءة بليغة تقرب معاني القول في التراث العربي المؤسس للبلاغة ومقارنته بما أنجز في بيئات غير عربية، والحرص على الضبط المعجمي والتركيبي والدلالي للاستعارة ومسارها العقلي والتخييلي...

ونجد الباحث يحمل هما معرفياً يُمكن إيجازه في تصحيح تصوّر المتلقي للتراث البلاغي العربي خاصّة عند عبد القاهر الجرجاني، الذي كان يبحث في البلاغة الشعرية والبلاغة القرآنية، وحازم القرطاجني، الذي كان يسعى إلى وضع أسس البلاغة الكلية بعد مطالعته لمنجز أرسطو من خلال شروح الفلاسفة المسلمين؛ (ابن رشد، الفارابي، وابن سينا)، ثم بيان نشأة البلاغة اليونانية التي ظهرت في سياق الدّفاع عن الحقوق ومحاولة التمسك بالقانون لتحقيق مطالب سكان أثينا؛ أي بيان الأبعاد القانونية والحقوقية في تأسيس البلاغة اليونانية، وفي هذا إشارة من الباحث مفادها أنّ البلاغة، بصفة عامّة، نتاج سياقات متداخلة بين ما هو سياسي وأدبي وثقافي واجتماعي... إلخ، وكذلك وليدة الإجابة عن أسئلة العصر، وفي هذا تصحيح وتقويم ورد على التّصورات التي حاولت الجزم في جعل أصول البلاغة مقيّدة بالخطاب الشرعي دون علم بظروف النّشأة في بيئات أخرى، وهذا المعطى الذي غيب في التلقي العربي للبلاغة تفتن إليه البلاغي محمد الولي، وخصص له جزءاً من مشروعه البلاغي بغية التصحيح والتقويم والسداد إلى سواء السبيل.

ولم تقف الإشكالات البحثية التي حركت البحث البلاغي عند البلاغي في حدود ما ذكرناه، بل تعدت ذلك إلى استحضار السياقات الخارجية للمنجزات الغربية والمكانة العلمية للكتب المترجمة والمقالات المحسوبة على البلاغة، ونجد ما ذكرناه في مقدّمة كل الكتب التي تمت ترجمتها، الأمر الذي يجعل المتلقي مستحضراً للسياقات العامة والخاصّة، وعيًّا منه بقيمة العتبات ودورها في تنوير القارئ السالك في طرق معتمة.

وقد كان سعي محمد الولي تجديد المعارف والخروج من الاجترار والمكوث فيما أنجزه الأجداد، وذلك بنقل نظريات نقدية وبلاغية من البيئة الغربية إلى العربية، وهو ما نرصده عند ترجمته لمنجز جان كوهن: "نظرية الانزياح"⁴³ و"نظريات الشعرية"⁴⁴، وقد مكنه ذلك من الإحاطة الشاملة بالمشاريع البلاغية الغربية الكُبرى، وبما جاءت به البلاغة القديمة، والفلسفة، واللسانيات التوليدية، والتداوليات، والجانب النفسي، والاجتماعي، والتاريخي في الأدب ودراساته، واضعاً نصب عينيه الاستعارة التي رعاها رعاية خاصّة في جل ما أنجزه من الدراسات.

ويمكننا القول: إنّ الاستعارة كانت محركاً أساساً فيما قدّمه إلى القارئ العربي؛ لأنها «المستودع الذي تتسوّق منه كل الاتجاهات الشعرية المعاصرة... كونها الأساس الراسخ لكثير من النظريات الشعرية»⁴⁵، ومن هنا يمكننا الحديث عن "الترجمة"، لأنّ المترجم تمسك برؤية علمية أكاديمية استحضّر فيها البعد النسقي والتألفي الذي يأتي به كل مصنّف وعلاقته بمصنّفات سابقة، مع تتبّع أوجه التلاقي بين البلاغة العربية والبلاغة اليونانية والغربية والأسلوبية المعاصرة⁴⁶، ورصد السجلات البلاغية التي لحقت الدرس البلاغي الغربي المعاصر⁴⁷.

وقد كانت تلك الإشكالات السابقة محكومة بنسق في التأليف، يدل على ذلك ما يبث في مقدمات الترجمات وباقي المقالات الأخرى التي تمثل تمسك البلاغي بالإجابة عن مجموعة من الأسئلة التي يطرحها المبحث البلاغي في المنجز العربي وغيره، إذ يعمل على فك الغامض، وتذليل صعاب الفهم، وتهوين ما عسر إدراكه من قبل القارئ، وهذا أمر طبيعي.

ويمكن إبراز هذا البعد النسقي التألفي، فيما هو آت:

- الاشتغال الاستعاري في التراث اليوناني؛ (أرسطو...).
- الاشتغال الاستعاري في التراث العربي؛ (عبد القاهر الجرجاني-حازم القرطاجني-السكاكي...).
- الاشتغال الاستعاري في المنجز الغربي؛ (شاييم بيرلمان...).
- الاشتغال الاستعاري في الخطابات الهامشية؛ (اليومي).
- الاشتغال الاستعاري في الخطابات العلمية؛ (الرياضيات).
- الاشتغال الاستعاري في الخطابات المؤثرة؛ (الشعري-السياسي-الإشعاري).
- الاشتغال الاستعاري في الشعر الحديث؛ (دراسة تطبيقية موضعها الشعر الفصيح).
- القوة الحجاجية للاستعارة؛ (بلاغة الحجاج)؛ (أرسطو-بيرلمان).
- التداخل في الصور الفنية بين (الكناية - الشاهد - التشبيه - الاستعارة - التمثيل - الأسطورة).

يريد محمد الولي القول من خلال هذا الاشتغال الاستعاري في منجزه: إنّ الاستعارة تعيش بهويات متعددة⁴⁸، مع الإسهام في تحرير البلاغة العربية⁴⁹، وما يؤكد تلك الرؤية النسقية، إتيان المقالات بتسلسل منهجي؛ بغية تقريب المعارف إلى المتلقي في صورة تجعله منجذباً تجاهها اكتشافاً وقراءة فاقتنا ثم تطبيقاً. هذه الاجتهادات البلاغية لمحمد الولي في الفضاء البلاغي المغربي تكسر الخضوع والسكون والركون والاستسلام والتكلس، والاندھاش مما أنتجته الجهود الغربية في هذا الحقل الخصيب، وتدعو إلى الاجتهاد في ضوء منهج علمي رصين يسهم في بناء صرح العلوم من جهة، ويطور أخرى من جهة ثانية، ولهذا كان محمد الولي الباحث الذي ينتهي إلى العالم بأسره، ويتكلم اللغات جميعاً بالعربية، وهذا بادٍ من خلال منجزاته عامة وترجمات خاصة، لكونها تشكل مرجعاً أساساً لكل سالك أو متخصص في حقل البلاغة وتحليل الخطاب.

إنّ هذا التعدد والانفتاح الذي جعله محمد الولي مطية للإجابة عن جملة من الإشكالات المعرفية الرهينة بالبلاغة العربية تحديداً -كما بيّنا- أسهم في إغناء الخزانة العربية، وأصبح القارئ العربي المبتدئ والمحترف مستوعباً، إلى حدٍّ ما، للنسق العام الذي جاءت في ضوئه البلاغة تنظيراً وتطبيقاً في ثقافات متعددة، وما على المتلقي إلّا حسن القراءة والفهم.

خلاصة

نخلص، في هذه الورقة البحثية إلى أنّ محمد الولي قد وجه اهتمامه إلى مبحث الاستعارة تأليفا وترجمة وتحليلا، ويمكننا أن نعرض النتائج المتوصل إليها فيما هو آتٍ:

أ- إن محمد الولي كان من الباحثين العرب الأوائل الذين حاولوا تقديم المنجز البلاغي اليوناني والعربي والغربي إلى القارئ العربي، من خلال الترجمة ووضع قراءات معاصرة تهدف إلى تقريب فهم هاته المنجزات والاستفادة منها والاستعانة بها في إنجاز بحوث أكاديمية تحمل في طياتها رؤية تجديدية في الفهم والتنظير والتطبيق، وهو ما تدلي به كل منجزات الباحث دون استثناء؛

ب- سدد محمد الولي اشتغاله التطبيقي تجاه الخطابات التي لم تأخذ حقها من العناية والاهتمام، أو ما وسمناه بالخطابات الهامشية مثل الخطابات اليومية والسياسية والعلمية، إضافة إلى الأخذ في المقاربة الخطاب الشعبي؛ (الأمثال- الحكيم) باللغة الأمازيغية/الريفية، وفي هذا فتح للدرس البلاغي على لغة أخرى تشكل جزءا لا ينفصل عن الهوية المغربية.

ج- تمسك الباحث في منجزاته البلاغية بإشكالين كبيرين،

- الأول: تطبيقي وهو البحث عن الاشتغال البلاغي في الخطاب؛

- الثاني: تنظيري بالبحث في سؤال البلاغة؛ السؤال المتصل بالخطابية والشعرية في التراث اليوناني والعربي؛ (الفصيح والعامي)، والمنجز الغربي.

ومن هذين الإشكالين توزعت مجموعة من الإشكالات الفرعية الأخرى، التي يحاول كل عمل أكاديمي الإجابة عن واحد منهما.

د- تعكس أعمال البلاغي المغربي بعدا نسقيا في التأليف؛ فنجد البحث الاستعاري أو آلية الاستعارة عنده وسيلة لتخطي كل المسالك الوعرة في سبيل البحث البلاغي؛ بالوقوف عند الخطاب وتسديد النظر تجاه الاشتغال الاستعاري فيه، وهو ما أسهم في تجاوز الرؤية الضيقة للاستعارة كما جاءت بها كتب التراث العربي، ومرد ذلك الإحاطة بأهم التصورات الاستعارية في منجزات عربية ويونانية وغربية.

تشكل أعمال محمد الولي المخصوصة للمبحث الاستعاري، في بيئات متعددة، وحدة متناغمة ومتناسبة

تنحو منحنى التمام رؤية ومنهج في الجانب التطبيقي أو في الترجمة أو في القراءة المقدمة إلى المتلقي

المتخصص، وهو ما جعل البحث البلاغي العربي المغربي فضاءً يجذب إليه كل متلقٍ يهوى البلاغة مطالعة

وبحنا وتحليلا وتأويلا في حلقة بحثية اصطفت مجال البلاغة وجعلته أداة للمدارسة والمطاربة.

الهوامش والإحالات:

1-مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس، العدد 6، 1982-1983.

2- نفسه، ص 179.

3- المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1990.

4- الصورة الشعرية في الخطاب النقدي والبلاغي، ص 10.

- 5- دار الأمان، الرباط، ط1.
- 6- دار توبقال، الدار البيضاء، ط1، 1986.
- 7- دار توبقال، الدار البيضاء، ط1، 1988.
- 8- ينظر تقديم الكتاب، فقد بسط فيه المترجمان أهم ما ميّز منجز رومان ياكبسون.
- 9- أفريقيا الشرق، المغرب، (د. ط)، 2003.
- 10- نفسه، ص 5 – 6.
- 11- البلاغة المدخل لدراسة الصورة البيانية، ص 7.
- 12- مجلة الأدب المغربي والمقارن، الأدب المقارنة والترجمة، منشورات زاوية للفن والثقافة، العدد3- 4، دجنبر 2006، ص 59.
- 13- دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، يناير 2013.
- 14- نفسه، ص 5.
- 15- دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2016.
- 16- فالية للطباعة والنشر، بني ملال، ط1، 1441هـ-2020م.
- 17- نفسه، ص 12. نشر أول مرة في مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، العدد1، بني ملال، المغرب، 2012.
- 18- نفسه، ص 35.
- 19- فضاءات الاستعارة وتشكلاتها، ص 35. (بتصرف).
- 20- فضاءات الاستعارة وتشكلاتها، ص 47.
- 21- ينظر أيضا: مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، العدد 11، بني ملال، 2017.
- 22- نفسه، ص 72.
- 23- ينظر أيضا: مجلة علامات، العدد 43، مكناس، 2015.
- 24- نفسه، ص 110. (بتصرف).
- 25- ينظر أيضا: مجلة أمل، العدد 15، الدار البيضاء، 1998.
- 26- نفسه، ص 126.
- 27- نفسه، ص 127.
- 28- ينظر: من ص 127 إلى 140.
- 29- نشرت أول مرة بعنوان: «خطاب حركة 15 ماي الإسبانية، أو البلاغة في خدمة السياسة»، في بلاغة الخطاب السياسي، إعداد وتنسيق: د. محمد مشبال، منشورات الاختلاف، ضفاف، ودار الأمان، الرباط، 2016.
- 30- فضاءات الاستعارة وتشكلاتها، ص 141.
- 31- ينظر أيضا: مجلة علامات، العدد 48، مكناس، 2017.
- 32- نشرت أول مرة بعنوان: «الكناية والشاهد والتشبيه والاستعارة»، في مجلة علامات، العدد 17، مكناس، المغرب، 2002.
- 33- نفسه، ص 180.
- 34- نفسه، ص 191.
- 35- دار فالية، بني ملال، ط1، 1441هـ-2021م.
- 36- نفسه، ص 185.
- 37- المرجع نفسه، ص 213.
- 38- مجلة الثقافة المغربية، العدد 39، ماي 2019.
- 39- الاستعارتان الكبيرتان، ص 337.
- 40- مجلة علامات، العدد 53، 2020.
- 41- حوار أجراه مصطفى شميعة مع محمد الولي، الاتحاد الاشتراكي، الملحق الثقافي، الجمعة 2 أكتوبر 2020، العدد 12.656.

- 42- نفسه.
- 43- ينظر: جان كوهن، بنية اللغة الشعرية.
- 44- ينظر: جان كوهن، الكلام السامي. وهو «تقويم للكتاب الأول واستئناف رحلة الشعرية في اتجاه فهم أدق وأنسب للخطاب الشعري»، نفسه، ص 5.
- 45- نفسه، ص 8.
- 46- نفسه، المقدمة.
- 47- ينظر: بول ريكور، الاستعارة الحية، ص 6-7.
- 48- ينظر: «الاستعارة بهويات متعددة»، مجلة علامات، العدد 53، 2020.
- 49- ينظر: «مساهمة في تحرير البلاغة العربية»، فضاءات الاستعارة وتشكلاتها، ص 191.

قائمة المصادر والمراجع:

- أوزتيجا إي جاسيت (خوسي)، «الاستعارتان الكبيرتان: الاستعارة في الشعر والعلم»، مجلة الثقافة المغربية، العدد 39، ماي 2019.
- ريكور (بول)، الاستعارة الحية، مراجعة وتقديم: جورج زيناتي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت-لبنان، ط 1، 2016.
- شميعة (مصطفى) والولي (محمد)، «حوار»، الاتحاد الاشتراكي، الملحق الثقافي، الجمعة 2 أكتوبر 2020، العدد 12.656.
- فرانسوا مورو، البلاغة المدخل لدراسة الصورة البيانية، ترجمة: الولي (محمد) وجريز (عائشة)، أفريقيا الشرق، المغرب، (د)، ط 1، 2003.
- كوهن (جان):
- الكلام السامي، ترجمة وتقديم وتعليق: الولي (محمد)، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت-لبنان، ط 1، يناير 2013.
 - بنية اللغة الشعرية، ترجمة: الولي (محمد) والعمرى (محمد)، دار توبقال، الدار البيضاء، ط 1، 1986.
 - الولي (محمد):
 - «الاستعارات ريفية ثقافية وكونية»، مجلة الأدب المغربي والمقارن، الأدب المقارنة والترجمة، منشورات زاوية للفن والثقافة، العدد 3-4، دجنبر 2006.
 - «الاستعارة بهويات متعددة»، مجلة علامات، العدد 53، 2020.
 - «الاستعارة عند السكاكي»، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس، المغرب، العدد 6، 1982-1983.
 - الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية، دار الأمان، الرباط، ط 1، 1426هـ-2005م.
 - الخطابة والحجاج بين أفلاطون وأرسطو وبرلمان، دار فالية، بني ملال، ط 1، 1441هـ-2020م.
 - الصورة الشعرية في الخطاب النقدي والبلاغي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 1، 1990.
 - فضاءات الاستعارة وتشكلاتها في الشعر والخطابة، والعلم والفلسفة، والتاريخ والسياسة، فالية للطباعة والنشر، بني ملال، ط 1، 1441هـ-2020م.
 - ياكوبسون (زومان)، قضايا الشعرية، ترجمة: الولي (محمد) وحنون (مبارك)، دار توبقال، الدار البيضاء، ط 1، 1988.